نفس المرأة

تابع صفحة ١٦٤

هل المرأة ارقى شعوراً من الرجل — منذ خمسين سنة قام جدال بين علماء النفس على انحطاط احساس المرأة فذهب لومبروزو وتلامذته الى ضعف شعورهـا وخالفه في رأيه ماتكيزا ومن تابعه و يتطوي في هذين المبدأين العامين نظريات ثانوية لا تكاد تحصى وانما نشأ تناقضهم عن اقتصار الباحثين على بعض الموضوعات المحدودة واوسع مجال الاختلاف ان التجارب انجزت في ممالك مختلفة وبما لا ريب فيه ان للبيئة وطوز المعيشة تاثيراً في الشعور فالبرابرة اقل شعوراً بالالم من المتمدنين وهؤلاء متفاوتون ايضاً في شعورهم فان ابناء الطبقات العالية المترفين ممن الفوا الرفاهية ونعومة العيش يشعرون بالالم فوق شعور المزارعين ومتى علمنا ذلك لم يسعنا ان نعزو التفاوت في الشعور الى الجنسية بل الى احوال الحياة التي تفرق بين الجنسين

قلنا ان بين العلماء اختلافاً كبيراً على ارتقاء حواس المرأة وانحطاطهـا وقد استشهد القائلون بانحطاطها على زعمهم بانها لا تستطيع التمييز بين انواع الخمور المختلفة وذلك يشير الى ضعف حاسة الذوق و يقولون مثل هذا في سائر حواسها فيفند المعارضون حجتهم قائلين انما تعجز المرأة عن التمييز بين صنوف الخمر لانها لا تدمنها كالرجال والمدمنات منهن يضارعن في ذلك ارقى الرجال

اما شدة احساسها بالالم فيفسر كثرة الآلام التي تنتابها و يقول ماتكيزا ان شعورها به اضعاف شعور الرجل و يذهب سرجا الى ما يناقض ذلك فيقول ان المرأة سريعة الانفعال كالطفل فتذري العبرات عند اقل طارئ، وتبدو على محياها علائم الالم غير ان النساء الكثيرات الامتزاج بالرجال اللواتي يمارسن حياة العمل يصبح دمعهن عصياً فيتجلدن على احتمال المصائب والاوجاع و يتصابرن على لقاء الخطوب و يقول لومبروزو ان ضعف حواس المرأة نعمة كبرى على المجتمع اذ يسهل عليها تحمل الام الحمل والوضع

سبب الانفعال — نعود في ذلك الى آراء الفسيولوجيين فقد برهنوا انه لتسنى معيشة المرأة في جسمها ونفسها لان حياتها المنزلية واقتصارها على انجاز الواجبات العائلية قلل من مناعة جسمها وخفض من مقاومتها ونشاطها وقال بان « تنمو العواطف الرقيقة حيث يضعف النشاط » على ان سرعة الانفعال لا تعود الى تركيبها العضلي بل تعزى الى فقر

الهم الناشيء عن قلة التمرين فالنساء العاملات اقل تعرضاً للانفعالات التي تنكد عيش غيرهن من النساء وقد قال احد الباحثين ان امرأة العصور القديمة تختلف كل الاختلاف عن امرأة اليوم

ولا ريب في ان دخول النساء في الحياة العامة واساليب تهذيبهن التي تبدلت كان لها اثر على حياتهن المعنوية فكلما تحككت المرأة بالرجل فقدت صفاتها الانثوية فهل يأتي يوم نضمحل فيه خواصها المميزة ؟ ان ذلك بعيد الاحتمال

استبحار العمران وانتشار التمدن يخففان من الم المرأة الناتج عن الامومة فهل يرجى ان يقويا على هاتيك الاوجاع حتى يلاشياها ؟ والذي نراه ان الامومة كان وسيكون لها الى الابد شأن

الحب والجمال المعنوي = انما تخسره المرأة ماديا تربحه معنويا وهذه الامومة تكبدها آلاماً لا تطاق الا انها تعطيها ارقى الصفات التي يمتاز بها الجنس البشري وهي الحب والحنان فالمرأة في سهرها الدائم على طفلها وعنايتها به يرتقي شعورها بالمحبة والعطف

في حب الامهات تسطع اسمى عاطفة في الوجود و يزدهر رجاء لاحد له تقر به عين الانسانية و ينفجر ينبوع هذا الحب في كل مكان فيرسم على كيانها آثاراً لا تمحى . ولا يضمحل حب المرأة الا بانقراض رجل آخر فارتباطها بوجودنا يحملها على حفظ العهود وصيانة المواثيق و يحق للمرأة ان تفاخر بوظيفتها الاجتماعية فان الامومة هي مصدر الفضائل والمحبة الغيرية التي يحيا بها المجتمع الانساني . وهذا الحب الشديد الذي يفصل بينها و بين الرجل ليس الا ليبوئها في الهيئة الاجتماعية مكانة اسمى من مكانته اذا احيا تكافل الجنسين دون مساواتهما في العظمة واشتراكهما في مقاساة الآلام

كذب المرأة = تنمو على شجرة حياة المرأة في احوالها المختلفة فروع تحيل للرائي انها الميزات الفارقة بين الجنسين وكثيراً ما يمر بها المفكرون غير محللين بالاسباب الطارئة التي جعلت بعضها نضيراً زاهراً يستهوي العيون مرآه والآخر ذاوياً جرفاً ينبو عنه البصر على اننا اذا بدلنا بيئة الشجرة تلاشت الفروع القابلة ولو احطت بالمرأة ظروف الرجل لكان لها فضائله وسيئاته

وما وجدنا اعجز من رأي من يأخذ على المرأة اختلاقها باسباب الرياء وهي سلاح الضعفاء في النزاع الحيوي ولا بد لنا من كلام يزيد القضية وضوحاً ونحن نرى علماء النفس على اتفاق في هذا الحكم الذي يشمل المجتمعات الانسانية الى ادناها فاذا قضي على الضعيف

ان ينازع القوي مال الى المراوغة والكذب وذلك شأن المرأة فكلما تحرج موقفها لجأت الى الأفك والبهتان ذوداً عن نفسها و يقول سبنسر » ان الكذب يرافق كل حالة اجتماعية قائمة على دعامتي القوة والخوف قوة السائدين وخوف المسودين قوة واقتداراً » غير ان الفلاسفة والمشرعين وعلماء النفس والشعراء والقصصيين اغضوا عن مصدر الشر وجعلوا الكذب صفة غريزية في المرأة اما الشارعون فحرموا المرأة حتى الشهادة زاعمين انها اقل صدقاً من الرجل فادى ذلك الى استطرادها في هذا السبيل وما كان الا ليؤيد تقاسة الرجل فشقاؤه ورياؤها متلازمان والآلام التي يكبدها اياها تفسد نظام حياته العائلية فالمرأة عنصر يدخل في حياة الرجل وفي وسعه ان يطهر ذلك العنصر او يفسده

نفث في روعها انها لم تخلق الا لارضائه فتوسلت الى هذه الغاية بوسائل مهلكة واضطرت ان تتصنع لتستر الطواري التي لم يها فتذهب بروعة جمالها ومالت الى استعمالاته بهرجتها فتزينت وتبرجت وتجيوت جملاً عدية تسردها عن غير شعور وزاع بها هذا التصنع عن طبيعتها واكسبها صفات مستنكرة حتى سهل عليها بتوالي الازمان كتم عواطفها والتظاهر بما لا تحس به فاصبحت تصرخ اذا مستها شوكة ولهالك اذا استغرق الالم وجودها والتمست من الرجل ان يحميها لانها راته يميل الى المرأة الضعيفة

ثم ضعفت فيها ملكة النقد والتمييز بالمثال تتقيمها فاصبحت تنظر الى المحسوسات نظراً مزوراً وتفسرها على غير حقيقتها ولم يشعر الرجل الا والمرأة قد تبدلت فبات ينكر الصفات التي افادها اياها الافك وعاث كل العيث في المجتمع حتى اصبح دعامة الحياة العامة

كذب الرجل = لا ننكر ان المرأة اشد رياء من الرجل غير انه ليس بفاقد هذه الصفة وانما الفرق في الكمية لا في الكيفية وقد تكذب المرأة وتداجي فلا تجر مداجاتها على الهيئة الاجتماعية ما يجره بهتان الرجل من الويلات فما يسمم وجود ناس الشواعر الكاذبة و يباعد بيننا و بين الفضيلة بظير لا بين الافراد فقط بل بين الاجناس والشعوب وما السلم المشاع سوى اكذوبة هائلة نفذت الى جميع الضمائر فمن التهذيب العام والخاص وعلاقات الطبقات الاجتماعية ومبادىء الحكومات والعدل وتحديد حقوق الوطنيين وواجباتهم تحولد تلك الآفة الهائلة فتفسد البيئة التي نعيش فيها وهذه العواطف تحدث وحيلة انخداع ولوطنية مدربة المخالب الفاتكة والنزوير عنصراً جوهرياً للحياة فالسلطة الفردية تستعين بالقول ان حق الملك من حق الله والديمقراطيون ينادون بوجوب المساواة وكلا الفريقين تلوح الى القبض على السلطة ولم يكتشف مدعو الزعامة بدخال السلم في الحياة العامة حتى

جاهروا بذلك غير خجلين وقد اقترت الانسانية على الديانات والآدبيات فبينما ترى التعاليم الدينية تنقضي علينا بمحبة الغريب نجد المتدينين يتنازعون ويتقاربون والشعوب تتطاحن في مضار الجهاد

والصنائع من ارقاها الى ادناها مدعومة بالافك والتزوير وهؤلاء السياسيون يأتون ضروب الغش والرياء ويرتكبون المناصب على سلم من المواعيد التي يستحيل تحقيقها وكلما قام مصلح لمناهضة البهتان رموه بضعف الوطنية وكل ذلك من اجل الرجل

وحسبنا بما تقدم دليلاً على مبلغ الرجل من الافك مما حمل المرأة في دورها على اقتفاء آثاره موقنة بضعفها الطبيعي وعجز متنها فانغمرت على الاكاذيب البسيطة وافرط رقيقها في البهتان

يستحب الرجل في شريكة حياته الرقة والخضوع شأن كل كائن قوي فيزيد في حبه وداعة الورقاء ويحببه اليها القوة والرجولية ومهما بلغ من اخلاقه فالمرأة مدفوعة الى مجاراته على اهوائه احتفاظاً بمحبته وصيانة لتنوع الانساني فلم يكفها في ذلك جمالها ورقتها بل سعت الى استرضائه بمغالبة فطرتها توسلاً الى بلوغ هذه الغاية وما وقفت عند حد التهريج والدلال بل اتخذت مظهراً معنوياً ملائماً لميوله فتاصل حب الاسترضاء في نفسها حتى غدا لها طبيعة ثانية واثرت فيها الوراثة والانتخاب الطبيعي حتى صحت ارضاء الرجل الغاية الكبرى من حياتها واوتاح الرجل الى تلك المظاهر ماخوذاً بما فيها من الروائح الخلابة فالهته ريا الزهر عما فيه من السم الزعاف واستفحلت المرأة مجهودها في استمالته ولو شوهت تكوينها المعنوي فاصبحت كثيرة المخاطفة قديرة على كتمان هواطفها لتظاهر بالايشاء والعاصفة تدور في داخلها لتلقي على نفسها ستاراً وخادعت شريكها بقولها وسرت كنهها واتساماتها فبرهن ذلك على انها لم تخسر طبيعتها الانسانية في عصور العبودية والرق فهي دائماً تحفظ مزيتها الانسانية مما يدل على ثباتها وصلابتها ومناوءتها لما ساءها الرجل من الحيف والضغط

تعاقبت القرون وتاثير الاحوال الخاصة يعمل في نفس المرأة حتى جعل لها سمة خاصة فطوت في ارضاء الرجل جميع غايات حياتها الدنيوية غير عابئة بما يسومها من ضعف فضيلتها ولكن مرونة النفس البشرية لا نهاية لها وفيها استعداد تام للرقي المعنوي فما زالت الظروف التي تبدل من وجدانها تنشط لحرية واستعادت ما فقدته من المواهب وخرجت الشعوب المتحفظة من بيئتها المظلمة لتضارع ارقى الشعوب مدنية ويكفي لحر تاثير عشرين قرناً عليان او ثلاثة اعقاب فهذه قبائل الماوريس كانت منذ قرن واحد سادرة في ظلمات الجهل

فما فتح لها باب المدنية حتى ضربت فيها بسهم وافر ونساؤها اليوم لسن دون النساء الانكليزيات وزنوج الولايات المتحدة عدوا منذ مائة عام بين احط الشعوب الافريقية وقد بلغوا اليوم شأواً بعيداً في الحضارة وشغلوا مركزاً رفيعاً في عالمي الاقتصاد والاجتماع

وكان يحق لنا اليأس من المستقبل لولا ان الانسان استطرق في سبيل الاسلاف واضاف الى النقائص الموروثة ما تنتجه العصور بتواليها غير ان النفس مرنة ومرونتها تنعش الرجاء بالمستقبل والمرأة في ذلك على مستوى الرجل فيتبدل تهذيبها ومركزها الاجتماعي تستعيد الصدق احدى صفات السادة وتهجر رياءه وهو تركة عصور البربرية وعلى هذا المنوال يشير مجموع الصفات الاخرى بقولنا ان نفوسنا تكيف على ما يلائم شروط البيئة فلم يخلق الرجل ولا المرأة كاذبين او صادقين فاذا مازج البهتان حياتنا لم يكن الا عقبى الصلات التي ربطت الجنسين

بعض المميزات — تنبهت في المرأة خاصتا الفهم والملاحظة لتستكشف مقاصد الرجل وتعمل على بلوغها فاكتسبت من بيئتها فضائل خاصة كما استفادت نقائص خاصة فاصبحت قادرة على التخلص من المآزق والنظر في اعماق نفس الرجل لمعرفة مظان الضعف فيها فعرفت كيف تلطف بكلمتها العذبة آلامنا وتهيج اشواقنا واصبحت مداهنتها اوضح اثراً واشد فعلاً واستطاعت لنقص شخصيتها ان تمتزج بشخصية الرجل اذ لا يمنعنا من الانقياد الى الغير سوى وثوقنا بالقوة واعتمادنا على الذات اما المرأة ففقدت هاتين الخاصتين واستغرقت في حياة الرجل واصبحت العنصر الجوهري لسعادتنا وشقائنا

ثم ان تفوقها الساكنة جعلتها ايسر انفعالاً فحبها بنفسها واعجابها فوق ما يشعر به الرجل على ان الايام لا بد ان تخفف من هذه العواطف

مالت المرأة الى الوهم ذلك الشعور المبهم العقيم ووجدت من تهذيبها ما ينزع بها هذا المنزع فولعت بقراءة الروايات وشغلت جل افكارها في الحب لانها تحيا لتحب وعكفت على مطالعة الاقاصيص الغرامية فاصبحت لها كالحب مصدر عواطف لا ينضب غير ان انصرافها الى القصص اضعف فيها ملكة الذكاء

التصورات الحبية — مال الرجل في دوره الى الغرام وما وجد اجمل من حديثه وقعاً في نفس المرأة فاصبح للحكايات الخيالية الشان الاكبر في حياتنا وهي غير جديرة بالنظر وغدا القصيون من رجال ونساء قادة الانسانية يضعون دعائم مستقبلها واشتغل الناس بالاوهام والاحلام عن الحقائق الثابتة ولعل مؤرخاً بشا في القرن الثلاثين ينظر الى ولوعنا بالخيال هازئاً بما ندعيه من الرقي العقلي وربما اوقفنا في مستوى المصر بين القدماء